عادل سعيد بشتاوى

الأندلسيون الموارکة

دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد

سقوط غرناطة

OMA Bib. Tripoli

الغلاف تصميم الفنان
مكرم حنين

الإهـــداء

● إلى الأندلسيين المواركة الذين حملوا راية العروبة والاسلام فسقطوا ضحايا لكارلوس الخامس وفيليب الثانى ومحاكم التفتيش وتخاذل الإخوان فى الدين والقومية .

● إلى كل الشرفاء الذين يحاولون اليوم منع كارثة مشابهة .

وأيضا :

إلى زوجتى فلولا صبرها وعونها ماتمكنت من انجاز هذه الدراسة .

المؤلف

ملاحظات على النص

نقصد بالأندلسيين « المواركة » العرب الذين بقوا فى قشتالة ومملكة غرناطة إثر صدور مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢ ، والأندلسيين البلنسيين الذين نصرهم الرعاع بالقوة سنة ١٥٢١ . وكلمة « المواركة » تعريب لكلمة (Moriscos) القشتالية التى تعني « النصارى الجدد » أو « النصارى الصغار » . وسبب اختيار « المواركة » محاولة التفريق بينهم وبين الأندلسيين الذين سكنوا شبه جزيرة ايبرية قبل سقوطها جزءا خلف الآخر طوال عدة قرون . واستخدم بعض المؤرخين وصف « المتنصرين » على الأندلسيين الغرناطيين ولكن هذا الوصف لايتمشى مع واقع الأمور كما سيتبين في النص . واستخدم البعض الآخر وصف « المورسكيون » ولكن هذا الوصف يعطى الانطباع بأن الحديث يتناول شعبا لايمت إلى العرب بصلة .

ووصف القوى التى حملت السيف ضد الأندلسيين طوال سبعة قرون بأنها « أسبانية » يعنى الوقوع في مغالطة تاريخية كبيرة لأن المدلول السياسى الواضح لهذه الكلمة لم يستخدم الا فى نهاية القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فكانت الكلمة ذات مفهوم غامض شاع استخدامه بين العامة كاطار جغرافي شمل قشتالة ، كما شمل ارغون وليون وقطالونيا ونافار والبرتغال ، وورثته عن الرومان الذين أخذوه ، كما يبدو ، من الفينيقيين . أما كلمة « الأندلس » فكانت تعني في البداية كامل شبه جزيرة ايبرية ثم تقلص مفهومها مع استمرار انحسار السلطة الإسلامية ، وباتت تعرف باسم « الأندلس الصغرى » في المراحل التالية قبل أن تقتصر السلطة الاسلامية على مملكة غرناطة . أما تسمية « الأندلس – اندلوثيا » اليوم فلها مدلول جغرافى واضح يشمل المنطقة الواقعة بين مرسية شرقا وحدود أسبانيا مع البرتغال غربا ، وهي مقسمة إلى ثمانى مقاطعات رئيسية هى : المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادس واشبيلية وولبة ، وتضم وادى النهر الكبير والرقعة الجنوبية التى اطلق عليها الرومان اسم ، بيتكا (Baetica) .

وإذا صعب انتهاج التحديد المطلق على الدوام نظرا للتغييرات الكبيرة التى طرأت على شبه جزيرة ايبرية طوال قرون عديدة ، فان التحديد سيكون الغالب حيثما أمكن . وسيرد اسم « الشماليين » أو « الممالك الشمالية » أو « أهل الشمال » للدلالة على القوى النصرانية التى حاربت المسلمين . ومعظم المواضع ترد في النص بالإسم الذى شاع بين الأندلسيين ، إلا إذا اقتضى النص الإشارة إلى الإسم الأسبانى أو المحدث فيدرج عندها الاسم المحدث مع كتابته باللاتينية أحيانا . ونظرا للاختلاف الكبير فى المصادر العربية القديمة بالنسبة لأسماء الأعلام ، فإن الأسماء ستكون كما يلفظها أهلها باستثناء الشائع المألوف .

واعتمد في النص التقويم المسيحي ومايقابله فى التقويم الهجرى في الفترة الواقعة بين فتح الأندلس واستسلام غرناطة ، ثم فيما بعد فى الأماكن الملائمة.وفى الملاحق جداول باسماء الحكام المسلمين وأهم حكام الممالك الشمالية ، وكذلك بأهم الأحداث التاريخية والمواضع والأسماء المهمة ومايقابلها باللاتينية. وربما لاحظ القارىء بعض التكرار فى معلومات معينة فى الفصول المختلفة ، والسبب طبيعة النص التى تفرض استقلالية محدودة لكل فصل ضمن موضوع عام واحد ، وروعي أن ترد المعلومات تلك بصورة مختلفة وتضمينها معلومات جديدة .

ولعل من المناسب القول أخيرا أننى ، وإن حاولت تدقيق جميع المعلومات الواردة فى النص طوال خمس سنوات من إعداده ، فإن هذا لاينفي بالطبع مسؤوليتى عن جميع الأخطاء الواردة فيه .

مقدمة

①

مدّ الفتح الذى اطلقه بنو أمية من دمشق اصطدم بهزيمة بلاط الشهداء ، وانحسر نحو الأندلس فأقام أصحابه هناك تسعة قرون بنوا خلالها مجدا وحضارة مانزال نكتشف جوانبهما إلى اليوم ، وسيظل تأثير تلك الحضارة باقيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومنذ قيام الإمارة في قرطبة ، تحتم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم لرد كل القوى التى حاولت غزو الأندلس سواء جاءت من الشمال ، أو من المملكة الكارولنجية ، أو من النورمان . ولعل من الصعب التطلع بغير الأعجاب إلى السلطة التى بناها عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، بغض النظر عن الأساليب التى اتبعها ، إذ استمرت بمقدار ثلاثة أضعاف عمر الخلافة الأموية وفاقت فى استمرارها السلطة الفعلية للخلافة العباسية ، بينما سقطت مملكة غرناطة بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول لبغداد واستمر التأثير الأندلسى مهما حتى بداية القرن السابع عشر . وبقاء الامارة ، ثم الخلافة القرطبية كل تلك السنوات ، يضع جميع القلاقل والأخطار الخارجية التى تهددتها في فترات مختلفة ضمن الإطار الذى أمكن السيطرة عليه . ولكن هذا لايمنع القول بأن بعض تلك الأخطار ، ولاسيما الداخلية منها ، كاد في لحظات كثيرة أن يقوض سلطة قرطبة ويعجل في سقوط الأندلس .

وفى الأندلس اشترك المسلمون والنصارى واليهود في صنع دولة كانت أقوى دول أوروبا . فهابها الجميع واسترضاها القاصى والدانى . وإن كانت الأندلس فتحت بالسيف فإنها استمرت على المساواة والسماحة ، ونهضت بفضل جهد أصحابها الذين صنعوا الثروة الاقتصادية الهائلة بالاعتماد على الزراعة والتجارة والصناعة ، وتضافرت عبقريات أبنائها فسقت من المشرق ماكان كافيا لصنع حضارة فذة تطورت مع الزمن ، فأصبحت قرطبة وطليطلة وسرقسطة واشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية المركز الحضارى ، الذى نهل منه الجميع ، وقامت على علومه الممررة من اليونان أو المطورة في المشرق والأندلس دعائم عصر النهضة الأوروبي ، وباتت قرطبة فى أوج عظمتها « زينة الكون » فاغتسل أهلها بتسعمائة

حمام عام وتوجهوا بالشكر للخالق في ٤٠٠ مسجد مستضيئين بألاف المصابيح المصنوع بعضها من الفضة الخالصة ، وسار مسلمها ونصرانيها ويهوديها على شوارعها المرصوفة فى أمان لم يتكرر بعدها فى أية بقعة من بقاع العالم إلى يومنا هذا .

إلا أن من الصعب ارضاء الجميع حتى فى المجتمعات التى لاتميز عموما بين صاحب هذا الدين أو ذاك ، ولذا فإن موجة الفتح الأولى دفعت إلى الشمال بمجموعات من الفارين والناقمين وتوفرت لواحد من القوط الغربيين ، يدعى بلايو ، العزيمة والتصميم للوقوف وجماعة صغيرة من اتباعه في وجه محاولات القضاء عليهم ، وبنى مملكة صغيرة تقوت بالناقمين أو الفارين من الجنوب ، وتطورت بفضل وعورة المكان الذى التجأت إليه فى أقصى شمال الأندلس . وخلال القرون الثلاثة التالية طورت الممالك الشمالية نظمها الادارية والعسكرية ، وانفردت قشتالة بلغة خاصة ، وبات من المستحيل أن يتمكن الأندلسيون من استيعاب تلك المناطق الشمالية على الصورة التى استوعبوا فيها الجنوب قبل ذلك . إلا أن تلك الممالك افتقدت الوحدة الضرورية . وهي وان كانت حققت بعض الانتصارات وتمكنت من مد سلطانها نحو الجنوب مستغلة النزاعات الداخلية التى عصفت بالأندلس ، إلا أنها لم تكن تشكل خطورة حقيقية على الإمارة أو الخلافة ، كما اتضح عندما قاد الحاجب المنصور جيوشه السنة تلو الأخرى ودك معاقل الشماليين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فاسترضاه ملوك الشمال وقدم إليه أحدهم ابنته .

ولكن انتصارات المنصور على الشماليين لم تكن لتخفي عوامل الانقسام الداخلى المتفاعلة منذ فتح الأندلس . إذ اندلع الصراع في البداية بين البربر والعرب، ثم اندلع بين العرب أنفسهم ، ثم بين العرب والمولدين وذهب بعض الحكام يستكثر من العبيد الصقالبة والزنوج حتى جاء المنصور فقضى على نفوذ العبيد والمرتزقة ، ولكنه بنى جيشه على البرابرة والمماليك وأسرى الحرب ، ونحى زعماء القبائل العربية

خوف المنافسة ، وابتعد العرب عن الجيش فى فترة خطيرة تميزت بروحها العسكرية العالية التى مالبثت ان انتقلت إلى الشمال . وكانت كل عوامل الانفجار موجودة يوم توفى المنصور ، ولكن الانفجار ذاته تأجل خلال عهدى ابنيه المظفر وعبد الرحمن شنجول ، ثم اتيحت الفرصة أخيرا لقيام المنافسة بين البربر والعبيد والمرتزقة فدبت الفتنة ، وخرب البربر قرطبة فانتقموا من الهزيمة الماحقة التى لحقت بهم بعد دخول الجيش الشامي إلى الأندلس . وفي السنوات اللاحقة اخفقت جميع محاولات بعث الحكم الأموى والإبقاء على وحدة الأندلس ، فتقسمت ، وبدأت الفترة المعروفة باسم ممالك الطوائف مع إطلاله القرن الحادى عشر .

وجاء انهيار الخلافة القرطبية في وقت حرج من تاريخ أوروبة والمشرق . حركة الاصلاح البابوية سعت في النصف الأول من القرن التاسع إلى زيادة التلاحم بين أبناء المسيحية وتدعيم سلطة البابوية ، وقويت هذه الحركة في السنوات التالية إلى أن جاء البابا يوحنا العاشر فبدأ فى الربع الأول من القرن العاشر قيادة الحملة لاخراج المسلمين من ايطاليا . وفي عهد الاسكندر الثانى نمت حركة لمركزة السلطات الكنسية الأوروبية تحت إمرة البابوية ، فراح يحث النورمان على طرد المسلمين من صقلية والجزر الأخرى في البحر الأبيض المتوسط الذى كان بحيرة اسلامية فى القرون الثلاثة السابقة ، مستغلا الضعف الذى ألم بالأندلس والمغرب العربي . ولايمكن فصل هذه التحركات الأولى عن الحروب التالية التي عرفت باسم الحروب الصليبية ، وشملت المشرق كما شملت الأندلس باعتبارها الجبهة الغربية لصراع البابوية مع الإسلام .

وهكذا بدأ الفرنسيون وغيرهم من أمم اوروبة فى التدفق على ممالك الشمال الأيبيرى بحثا عن فوائد دينية ودنيوية ، ولم يتمكن ملوك الطوائف من لجم الخطر القادم من الشمال لضعفهم وتفرقهم ، فدفعوا الجزية لملوك الشمال . ولكن الجزية فى ابعاد شر الشماليين عنهم ، بل قدمت لملوك النصرانية الأموال

التى ساعدتهم على استقدام المرتزقة وتقوية الجيش ، ووفرت الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهزيمة . وسقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ على يدى الفونصو السادس .

وكان واضحا مع سقوط عاصمة الثغر الأوسط أن ميزان القوى مال إلى صالح الممالك الشمالية ، فدب الرعب فى الناس وتعالت بعض الأصوات تنادى بالرحيل عن الأندلس . إلا أن هؤلاء كانوا قلة لأن غالبية الناس لم تكن تعرف غير الأندلس موطنا ، ولذا اختار البعض أهون الشرين وطلبوا من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين النجدة ، وتمكن الأخير من هزيمة الفونصو السادس فى موقعة الزلاقة التى وقعت في السنة التالية من سقوط طليطلة . ولكن شعور السلطان بأن بعض ملوك الطوائف يميلون إلى الاتفاق مع الفونصو ، وأنه أحق بالأندلس من حكامها ادى إلى استيلائه على السلطة في تلك البلاد الغنية ، وتحول المجير إلى جائر يتحكم في الأندلس وأهلها ، فلا هو تركهم يقررون مصيرهم ولاهو حماهم في كل الأوقات ، إذ سقطت بلنسية بعد ثلاث سنوات من بداية عهد المرابطين في الأندلس ، ولم يتمكن من استعادة طليطلة رغم حصارها ، وأعطى الفونصو السبب لحث الفرنسيين على نصرته بتشجيع رجال الدين .

وسنة ١٠٩٥ كانت ذات تأثير كبير على تطورات التاريخ فيما بعد إذ تسبب ضغط الأتراك على الامبراطورية البيزنطية في إجبار اليكسوس كومينوس على طلب العون من البابوية رغم القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية . واستغل البابا اربانوس (اربان) الثانى الطلب لكي يعلن الحرب الصليبية على الاسلام ، دون اغفال أهمية نصرة المسيحية لأبنائها الذين يحاربون المرابطين والأندلسيين فى الغرب ، ولم يمض ٤٥ شهرا على الخطبة حتى كان الصليبيون في بيت المقدس . على الجبهة الغربية تمكن المرابطون